الينابيع

مجدي صابر

رحلة السندباد المجهولة

الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

الفَصْلُ الرّابِعُ
عَنْبَر والقُرْصانُ الأَسْوَدُ

اسْتَمَرَّت السَّفينَةُ في سَيْرِها طَوالَ اللَّيْلِ . وَفَجْأَةً عِنْدَ الفَجْرِ انْفَجَرَ في السَّماءِ صَوْتٌ رَهيبٌ ، فَقَفَزَ السِّنْدِبادُ مِنْ فِراشِهِ وَهُرِعَ إلى سَطْحِ السَّفينَةِ ؛ فَشاهَدَ الإعْصارَ الرَّهيبَ يَنْدَفِعُ في قَلْبِ السَّماءِ عَلى شَكْلِ قِمَعٍ لَهُ ذَيْلٌ طَويلٌ ، تَرْتَجِفُ حَوافُّهُ وَتَفورُ وَكَأَنَّها الزَّيْتُ المَغْلِيُّ ، وَقَدْ ذابَ ضَوْءُ الفَجْرِ الوَليدُ في حُمْرَةِ الإعْصارِ ، وَقَدْ راحَتِ الرِّياحُ تَصْفِرُ وَكَأَنَّها زَفيرُ الجانِّ ، وَالمِياهُ تَتَقَلَّبُ تَحْتَها وَكَأَنَّها أَرْضٌ يَحْرُثُها الهَواءُ .

صَرَخَ السِّنْدِبادُ في هَلَعٍ : « إنَّهُ الإعْصارُ ! »

جاوَبَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ مِنَ الخَلْفِ في صَوْتٍ هادِئٍ : « الحَمْدُ للهِ أَنَّنا تَجاوَزْنا في اللَّيْلِ مَنْطِقَةَ قَلْبِ الإعْصارِ ،

وَإلا أصابَنا ضَرَرٌ هائِلٌ ، وَما نَجَوْنا مِنْهُ أَبَدًا ، وَتَهَشَّمَتْ سَفينَتُنا كأَنَّها كَعْكَةٌ صَغيرةٌ تَهْرُسُها رَحًى هائِلَةٌ . »

وَاسْتَمَرَّتْ فَرْقَعَةُ الرِّياحِ وَفَوَرانُ المِياهِ وَتَلَوُّنُ السَّماءِ بِالأَلْوانِ الدّامِيَةِ ، حَتّى العَصْرِ ، فَهَدَأَ كُلُّ شَيْءٍ ، وَعادَ البَحْرُ وَالسَّماءُ إلى سُكونِهِما ، وَانْزاحَ الإعْصارُ بَعيدًا ، فَأَمَرَ الشَّيْخُ رَشْدانُ بَحّارَتَهُ بِالرُّسُوِّ عِنْدَ بَعْضِ الجُزُرِ القَريبَةِ عَلى ساحِلِ البَحْرِ الأَحْمَرِ ، فَابْتاعَ مِنْ سُكّانِها الفاكِهَةَ الطّازَجَةَ وَالمِياهَ العَذْبَةَ ، ثُمَّ رَفَعَتِ السَّفينَةُ مَراسِيَها وَانْطَلَقَتْ مَرَّةً أُخْرى تَجْري في قَلْبِ المِياهِ .

وَوَقَفَ السِّنْدِبادُ مَكانَهُ فَوْقَ حاجِزِ السَّفينَةِ ، وَهُوَ يَقولُ لِنَفْسِهِ : « ها نَحْنُ أولاءِ نُبْحِرُ ثانِيَةً ، إلى حَيْثُ المَجْهولُ . »

وَلَمْ يُحِسّ بِاقْتِرابِ الشَّيْخِ رَشْدانَ مِنْهُ ، إلا عِنْدَما وَضَعَ يَدَهُ فَوْقَ كَتِفِهِ ، فَالْتَفَتَ إلَيْهِ صامِتًا ، وَتَأَمَّلَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ بُرْهَةً ثُمَّ قالَ لَهُ : « إنَّني أَقْرَأُ ما يَجولُ في خاطِرِكَ ؛ فَهُوَ واضِحٌ في عَيْنَيْكَ ، وَأَرى سُؤالَكَ

fofoyoyo

مَطْبوعًا في مُقْلَتَيْكَ . »

سَأَلَهُ السِّنْدِبادُ دونَ إلْحاحٍ : « وَهَلْ مِنْ إجابَةٍ ، أمْ أنَّ الأَوانَ لَمْ يَحِنْ بَعْدُ ؟»

أطْبَقَ الشَّيْخُ رَشْدانُ شَفَتَيْهِ عَنِ الرَّدِّ ، وَبَدا كَأَنَّهُ يُغالِبُ نَفْسَهَ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إلى السِّنْدِبادِ ، وَأجابَهُ في صَوْتٍ حَنونٍ : « بَلْ آنَ الأوان ، يا سِنْدِبادُ ، فَلا تَجْزَعْ أوْ تَنْزَعِجْ مِمّا أُوشِكُ أنْ أُخْبِرَكَ بِهِ مِنْ أمْرٍ ، قَدْ تَحْسِبُهُ الجُنونَ بِعَيْنِهِ . »

قالَ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « سَوْفَ نُبْحِرُ ، بِإذْنِ اللهِ وَمَشيئَتِهِ ، إلى بِلادِ الجَليدِ !»

شَهِقَ السِّنْدِبادُ لِفَرْطِ المُفاجَأةِ ، وَحَسِبَ أنَّ سَمْعَهُ خانَهُ ، فَتَأمَّلَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ في صَمْتٍ حَزينًا ، ثُمَّ قالَ في أسًى : « كُنْتُ أظُنُّكَ أكْثَرَ جَسارَةً وَحُبًّا لِلْمُخاطَرَةِ ، مِمّا أراكَ عَلَيْهِ الآنَ ، وَلَكِنَّ الفارِسَ الجَسورَ كَالْبَخورِ الجَيِّدِ ، لا تَظْهَرُ حَقيقَتُهُ إلا مَتى اقْتَرَبَ مِنَ الجَمْرِ المُتَّقِدِ ،

وَلَسَعَتْهُ حَرارَةُ النِّيرانِ . »

ابْتَلَعَ السِّنْدِبادُ لُعابَهُ في تَوَتُّرٍ ، وَتَمالَكَ زِمامَ نَفْسِهِ وَهُوَ يَقولُ : « وَلَكِنْ ، يا سَيِّدي ، هَذِهِ مُفاجَأةٌ تامَّةٌ . أرْضُ الجليدِ ! هَذا آخِرُ ما كُنْتُ أتَخَيَّلُ أنْ أسْعى إلَيْهِ !»

وَسَكَتَ لَحْظَةً ثُمَّ قالَ في تَوَتُّرٍ أشَدَّ : « وَلِماذا نُلْقي بِأنْفُسِنا في جَحيمِ هَذِهِ الأَرْضِ ، أيُّها الشَّيْخُ الطَّيِّبُ ، وَلا شَيْءَ يُجْبِرُنا على ذَلِكَ ؟»

أجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « كَأنّي أشُمُّ رائِحَةَ الخَوْفِ تَفوحُ مِنْ كَلِماتِكَ التي يَبْدو في ظاهِرِها النُّصْحُ . »

قالَ السِّنْدِبادُ مُراوِغًا : « إنَّهُ الحِرْصُ عَلى الحَياةِ . فَالْخَوْفُ يُبْعِدُ الشَّرَّ عَنِ الإنْسانِ . »

قالَ الشَّيْخُ : « وَالشَّجاعَةُ تُخَلِّصُهُ مِنَ الشَّرِّ ، فَلا يَعودُ ثَمَّةَ سَبَبٌ لِلْخَوْفِ بَعْدَ ذَلِكَ . »

قالَ السِّنْدِبادُ في ضيقٍ : « لَسْتُ أرى غَيْرَ أنَّنا نُلْقي بِأنْفُسِنا إلى التَّهْلُكَةِ . »

forovoyo

تَأمَّلَهُ الشَّيْخُ ، وَكَأنَّهُ يَسْتَشِفُّ أفْكارَهُ ، وَقالَ : « اِثْنانِ لا يَرَيانِ الحَقيقَةَ ، هُما الأعْمى وَالجَبانُ ، وَأراكَ كَسولاً تَخْشى المَشْيَ في الشَّمْسِ ؛ حَتّى لا تَتَكَبَّدَ مَشَقَّةَ جَرِّ ظِلِّكَ خَلْفَكَ !»

احْتَدَّ السِّنْدِبادُ قائِلاً : « لَسْتُ جَبانًا أوْ كَسولاً . »

جاوَبَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ في سُخْرِيَةٍ : « إنَّكَ تَتَشَدَّقُ بِكَلِماتٍ كَثيرةٍ عَنِ الشَّجاعَةِ . وَكَلِماتُكَ في حَقيقَتِها مِثْلُ أوْراقِ شَجَرٍ كَثيفةٍ ، لا يُخْفي وَراءَهُ غَيْرَ ثَمَرٍ قَليلٍ . »

أَقَرَّ السِّنْدِبادُ بِخَشْيَتِهِ قائِلاً : « إذا كانَ في شَجاعَتي هَلاكي - فَبِئْسَ الشَّجاعَةُ ، فَكَلْبٌ حَيٌّ أفْضَلُ مِنْ لَيْثٍ مَيِّتٍ . »

أَجابَهُ الشَّيْخُ في سُخْرِيَةٍ أشَدَّ : « أنْ تَكونَ ذَيْلاً لِلَيْثٍ مَيِّتٍ أفْضَلُ مِنْ أنْ تَكونَ رَأسًا لِكَلْبٍ حَيٍّ . وَإذا صِرْتَ كَلْبًا لِمَرَّةٍ واحِدَةٍ ، فَلَنْ تَكُفَّ عَنِ النُّباحِ عُمْرَكَ كُلَّهُ ، مَهْما تَعْلُ مَكانَتُكَ . »

شَحَبَ وَجْهُ السِّنْدِبادِ ، وَرَكِبَهُ خَجَلٌ عَظيمٌ وَقالَ : « أنْتَ عَلى حَقٍّ ، أيُّها الشَّيْخُ ، وَلَسْتُ أدْري كَيْفَ قُلْتُ ما قُلْتُهُ ، أوْ كَيْفَ رَكِبَني هَذا الخَوْفُ الَّذي لَمْ أشْعُرْ بِمِثْلِهِ في حَياتي لِشَيْءٍ مَجْهولٍ لَمْ أرَهُ . »

قالَ الشَّيْخُ رَشْدانُ في رِقَّةٍ ، مُشْفِقًا عَلَيْهِ : « قَدْ يَكونُ الخَوْفُ واقِيًا لَنا وَعاصِمًا في بَعْضِ الأحْيانِ ، بِشَرْطِ أنْ لا يَسْبِقَ شَجاعَةَ المَرْءِ وَيَطْغى عَلَيْها ، فَلَيْسَ كُلُّ التَّهَوُّرِ شَجاعَةً ، ولا كُلُّ الإقْدامِ جَسارَةً ، كَما أنَّ الخَوْفَ لَيْسَ في مُعْظَمِهِ جُبْنًا . »

قالَ السِّنْدِبادُ وَهُوَ يُغالِبُ فُضولَهُ : « حَدِّثْني إذَنْ عَنِ السَّبَبِ الَّذي يَجْعَلُكَ تَسْعى إلى أرْضِ الجَليد . »

قالَ الشَّيْخُ : « سَوْفَ أخْبِرُكَ ، يا سِنْدِبادُ ، فَمِنْ حَقِّكَ أنْ تَعْرِفَ ما دُمْتَ سَتُشارِكُني هَذِهِ الرِّحْلَةَ المُهْلِكَةَ . »

وَصَمَتَ طَويلاً دونَ أنْ يَجْرُؤَ السِّنْدِبادُ عَلى اقْتِحامِ صَمْتِهِ . وَقالَ الشَّيْخُ أخيرًا ، وَكَأنَّهُ اسْتَجْمَعَ شَتاتَ قُواهُ

fofoyoyo

الخائِرَة :

« قَبْل اثْنَيْ عَشرَ عامًا كُنْتُ شَهْبَنْدَرَ التُّجّارِ في دِمَشْقَ ، وَكانَ لي ثَراءٌ عَظيمٌ وَقصورٌ وَأَمْوالٌ لا حَصْرَ لَها ، وَكانَتْ لي سُفُنٌ عَديدَةٌ تَجوبُ الآفاقَ مُحَمَّلَةً بالبَضائِع ، فَيَبيعُ وُكَلائي وَأُجَرائي البَضائِع ، ويشْتَرونَ غَيْرَها مِنْ بِلادِ الصِّيْنِ وَالهِنْدِ وَالخَليجِ العَرَبِيِّ ، وَحَتّى مِنَ الأَحْباشِ ، فَتَضاعَفَتْ أَمْوالي ، حَتّى صِرْتُ لا أَجِدُ مَوْضِعًا لَها ، وَصِرْتُ أُفَرِّقُ مِنْها لِلنّاسِ وَأَبْتَني لَهُمُ البُيوتَ وَالمَنازِلَ وَأَكْسوهُمْ وَأُوَزِّعُ عَلَيْهِمُ الهِباتِ . وَلَكِنْ ، ذاتَ يَوْم لا تَزالُ ذِكْراهُ مَحْفوظَةً في عَقْلي ، ماتَتْ زَوْجَتي بِسَبَبِ مَرَضٍ مُفاجِئٍ لَمْ يُمْهِلْها طَويلاً . »

وَ ابْتَلَّتْ عَيْنا الشَّيْخِ رَشْدانَ بِالدُّموعِ ، وَقالَ : « لَمْ أَحْزَنْ عَلى إِنْسانٍ قَدْرَ حُزْني عَلى فِراقِها ، فَقَدْ كانَتْ نِعْمَ الزَّوْجَةُ والأُخْتُ وَالأُمُّ ، وَبِمَوْتِها صِرْتُ لا أُطيقُ قَصْري وَلا الدَّكاكينَ وَلا تِجارَتي ، فَكَأَنَّها كُلُّها تُذَكِّرُني بِها ، فَفَكَّرْتُ في السَّفَرِ والتَّرْحالِ ، عَسى أَنْ يُخَفِّفَ ذَلِكَ مِنْ

أَوْجاعي . وَكانَتْ لِيَ ابْنَةٌ وَحيدَةٌ تُدْعى عَنْبَر ، تَبْلُغُ مِنَ العُمْرِ ثَلاثَةَ أَعْوام ، فَاصْطَحَبْتُها في رِحْلاتي ، بَعْدَ أَنْ وَزَّعْتُ كُلَّ ما أَمْلِكُ في بِلادي عَلى الفُقَراءِ وَالمُعْوَزينَ . وَأَخَذْتُ أَجوبُ البِلادَ وَالبِحارَ وَالمُحيطاتِ ، وَأَزورُ كُلَّ مَكانٍ ، فَصِرْتُ خَبيرًا بِأُمورِ البَحْرِ وَقيادَةِ السُّفُنِ مِثْلَ أَمْهَرِ رُبّانٍ ، وَعَرَفْتُ مِنَ البِلادِ وَالعِبادِ واللُّغاتِ ما لَمْ أَكُنْ أَتَخَيَّلُ وُجودَهُ في العالَمِ . »

رَمَقَ السِّنْدِبادُ الشَّيْخَ رَشْدانَ ، وَقَدْ بَدا لَهُ مَهيبًا جَليلَ الشَّأْنِ ، في مَنْزِلَةِ العُلَماءِ . وَ واصَلَ الشَّيْخُ في صَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ :

« وَمَرَّتْ خَمْسُ سَنَواتٍ وَكَبِرَتِ ابْنَتي عَنْبَر وَصارَ لَها مِنَ العُمْرِ ثَماني سَنَواتٍ ، وَصارَتْ عِنْدي أَغْلى مِنَ الدُّنْيا وما فيها ، وَأَصْبَحْتُ لا أُطيقُ فِراقَها ، وَأَصْحَبُها في أَسْفاري الدّائِمَةِ ، وَكُنْتُ لابْنَتي بِمَثابَةِ الأَبِ والأُمِّ والأَخِ ، إِلى أَنْ جاءَ يَوْمٌ لَمْ تَطْلُعْ لَهُ شَمْسٌ . »

وَأَمْسَكَ الشَّيْخُ رَشْدانُ دُموعَهُ ، وَ واصَلَ في تَجَلُّدٍ :

fotoyoyo

لاثٍ مِنْ سُفُني مُحَمَّلَةٍ بالبَضائعِ

« كُنْتُ أُبْحِرُ في ثَاجَمْنا بَغْتَةً بضْعٌ مِنْ سُفُنِ القَراصِنَةِ، وَالأَعْوانِ ، عِنْدَما هاجِمِيٌّ بَغْتَةً بضْعٌ مِنْ سُفُنِ القَراصِنَةِ، يَرْأَسُهُمْ قُرْصانٌ حَبَشٍ لا تَلَقَّبونَهُ بالأَسْوَدِ . وَكانَ هَذا القُرْصانُ وَحْشًا دَمَوِيّاةً لِلْقاخُذُهُ رَأفَةٌ وَلا شَفَقَةٌ بإنْسانٍ ، وَلَمْ تَكُنْ سُفُني مُجَهَّزَةً لِلقِتالِ أوْ صَدِّ العُدْوانِ ، فَسَقَطَتْ كُلُّها أسيرَةَ قَبْضَةِ القُ، وَمِنَ السَّفّاحِ ، وَأَرَدْتُ الخُروجَ بأَقَلِّ الخَسائِرِ المُمْكِنَةِ انِ الحِمايَةَ أَرْواحِ أتْباعي وَابْنَتي ، فَعَرَضْتُ عَلى القُرْصانِ بَالأَسْوَدِ أنْ يَسْتَوْلِيَ عَلى سُفُنِنا الثَّلاثِ ، بِما تَحْمِلُ مِقْرَبِنائِعَ وَنَفائِسَ ، عَلى أنْ يَقومَ بإنْزالِنا سالِمينَ فَوْقَ أَلّاحَ ، أَرْض، خالِيّينَ الوِفاضِ ، وَلَكِنَّ القُرْصانَ السَّفّاحَ . »

البَحْرِ ، لِتَأْكُلَنا أَسْماكُ جًا : « وَهَلْ غَرِقَ كَثيرٌ مِنْكُمْ ؟»

سَأَلَ السِّنْدِبادِ مُنْزَعِجُ تَخْنُقُهُ : « « كُنْتُ أنا النّاجِيَ

قالَ الشَّيْخُ وَالعَبَراإنْ كانَ ذَلِكَ لِحُسْنِ حَظّي ، أَمْ الوَحيدَ ، وَلا أدْري

لِسوئِهِ . »

سَأَلَهُ السِّنْدِبادُ في تَلَهُّفٍ : « وَابْنَتُكَ ؟»

قالَ الشَّيْخُ بِحُزْنٍ : « كانَتْ عَنْبَرَ هِيَ الوَحيدَةَ

قالَ الشَّيْخُ رَشْدانُ بِهِ في اليَمِّ ، واحْتَفَظَ بها أسيرَةً الَّتي لَمْ يُلْقِ بِها القُرْصانُ مِنْ سُفُنِ عَديدَةٍ ، وَلا لَدَيْهِ مَعَ أطْفالٍ آخَرينَ اماذا كانَ مَصيرُهُمْ . وَمُنْذُ تِلْكَ أدْري ماذا فَعَلَ بِهِمْ ، أوْ ابْنَتي . »

اللَّحْظَةِ لَمْ تَقَعْ عَيْني عَلى شْدانَ : « أ لَمْ تُحاوِلِ البَحْثَ سَأَلَ السِّنْدِبادُ الشَّيْخَ رَاتِ السَّبْعِ الماضِيَةِ ؟»

عَنْ عَنْبَرَ خِلالَ تِلْكَ السَّنَو « بَلْ لَمْ يَعُدْ لي مِنْ هَدَفٍ في

أَجابَهُ الشَّيْخُ بِمَرارَةٍ : سِوى مُطارَدَةِ هَذا القُرْصانِ ، فصِرْتُ اتتبّعَهُ مِنْ ميناءٍ لِميناءٍ ، وَمِنْ بَحْرٍ إلى مُحيطٍ ، وَمِنْ جَزيرَةٍ لِمْرفَأ ، وَأنا أعْمَلُ كَأجيرٍ فَوْقَ السُّفُنِ المُخْتَلِفَةِ لِكَيْ أُدَبِّرَ نَفَقاتِ تَرْحالي ، وَلَمْ يَكُنْ لي مِنْ أمَلٍ سِوى مُصادَفَةِ القُرْصانِ الأَسْوَدِ لأعْرِفَ مِنْهُ مَصيرَ ابْنَتي ، وَلِتَكونَ نِهايَتُهُ عَلى يَدَيَّ وَلَوْ كانَ في ذَلِكَ هَلاكي . وَلَكِنَّ كُلَّ ما فَعَلْتُهُ كانَ دونَ جَدْوى ، فَما كُنْتُ أكادُ

fofoyoyo

أصِلُ لِميناءٍ حَتّى أجِدَهُ قَدْ غادَرَهُ تَمامًا ، وَما أكادُ أَلْحَقُ بِهِ فَوْقَ جَزيرَةٍ حَتّى يَسْبِقَني في مُغادَرَتِها ، فَكَأَنَّ القَدَرَ يَسْخَرُ مِنّي وَيَزيدُ مِنْ إيلامي ، أَوْ كَأَنَّني أُطارِدُ شَبَحًا ، لا واحِدًا مِنْ بَني البَشَرِ . »

وَصَمَتَ الشَّيْخُ رَشْدانُ لَحْظَةً ثُمَّ قالَ : « وَقَبْلَ شُهورٍ عَلِمَ الخَليفَةُ بِأَمْري ، وَأَشْفَقَ عَلَيَّ ، فَمَنَحَني سَفينَةً كَبيرَةً ، لِتَكونَ تَحْتَ إمْرَتي ، وَ وَهَبَني مالاً كَثيرًا لأَسْتَأْجِرَ بِهِ البَحّارَةَ اللازِمينَ لِلإبْحارِ . وَخِلالَ ذَلِكَ الوَقْتِ عَلِمْتُ أَنَّ القُرْصانَ الأَسْوَدَ قَدِ اتَّجَهَ إلى أَرْضِ الجَليدِ وَاسْتَقَرَّ هُنالِكَ لِسَبَبٍ لا أَدْري ؛ فَعَزَمْتُ عَلى اللَّحاقِ بِهِ ، مَهْما كَلَّفَني ذَلِكَ مِنْ مالٍ وَجَهْدٍ . »

سَأَلَهُ السِّنْدِبادُ بِعَيْنَيْنِ مُتَّسِعَتَيْنِ : « وَ ما الَّذي مَنَعَكَ مِنَ السَّعْيِ خَلْفَ هَذا القُرْصانِ السَّفّاحِ الشُّهورَ الماضِيَةَ ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ حَزينًا : « إنَّهُمُ البَحّارَةُ ، فَما يَكادونَ يَعْلَمونَ بِغَرَضي حَتّى يَصِفوني بِالْجُنونِ ، وَاسْتَحالَ عَلَيَّ أَنْ أَجِدَ مَنْ يُبْحِرُ مَعي إلى أَرْضِ الجَليدِ . وَكانَ مُسْتَحيلاً

أنْ أتَزَوَّجَ مِنِّي بَعْدَ وَقْتٍ اسْتَقَرَّ رَأْيي عَلى اسْتِخْدامِ أولَئِكَ البَحّارَةِ مِنَ البَصْرَةِ دونَ أَنْ أُخْبِرَهُمْ عَنْ وُجْهَتي ، حَتّى لا أَفْقِدَهُمْ كَالآخَرينَ . »

وَ وَضَعَ الشَّيْخُ رَشْدانُ يَدَهُ فَوْقَ كَتِفِ السِّنْدِبادِ مُواصِلاً : « لَقَدْ ساقَني إلَيْكَ حاجَتي إلى شابٍّ جَسورٍ ، يَكونُ سَنَدي وَعَضُدي وَقْتَ الشَّدائِدِ ، عِنْدَما أُلاقي القُرْصانَ السَّفّاحَ وأَسْتَرِدُّ مِنْهُ ابْنَتي . وَقادَتْني غَريزَتي إلى بَغْدادَ في ذَلِكَ الزُّقاقِ ، وَقادَكَ القَدَرُ إلَيَّ . فَكانَ لَكَ فِيَّ الخَلاصُ مِنْ جُنودِ الوَزيرِ ، وَكانَ لي فيكَ أَمَلي الأَخيرُ بِبُلوغِ مُرادي وَاسْتِعادَتي ابْنَتِيَ الوَحيدَةَ الحَبيبَةَ . وَقَدْ أَسْعَدَني الحَظُّ بِكَ ، أَيُّها الفَتى الجَسورُ . »

وَشَرَدَ الشَّيْخُ رَشْدانُ بِبَصَرِهِ إلى الأُفُقِ البَعيدِ ، حَزينًا مَوْجوعًا ، فَأَوْشَكَتِ العَبَراتُ أَنْ تَطْفِرَ مِنْ عَيْنَيِ السِّنْدِبادِ إشْفاقًا ، وَقَدِ انْكَشَفَ لَهُ سِرُّ رَفيقِهِ أَخيرًا ، وَالدّافِعُ الَّذي يَسوقُهُ إلى تِلْكَ الأَرْضِ المَجْهولَةِ دونَ هَوادَةٍ ، وَأَيُّ نارٍ كانَتْ تَشْتَعِلُ في قَلْبِهِ طَوالَ سَنَواتٍ ، دونَ أَنْ يَشْكو

fofoyoyo

لَهيبَها لإنْسانٍ !

وَأَفاقَ عَلى صَوْتِ الشَّيْخِ وَهُوَ يَقولُ لَهُ : « وَلَكِنّي الآنَ أَشْعُرُ أَنَّني أَسوقُكَ إلى ما لا تَرْغَبُ ، وَأَنَّهُ لا ذَنْبَ لَكَ في كُلِّ ما جَرى لي وَثَأْري المَحْتوم ، وَلَيْسَ مِنْ حَقّي أَنْ أَسوقَكَ إلى التَّهْلُكَةِ اسْتِغْلالاً لِمِحْنَةِ هُروبِكَ مِنْ بَغْدادَ رَغْمًا عَنْكَ، فَإنْ شِئْتَ ، أيُّها الفَتى ، رَسَوْتُ بِسَفينَتي عِنْدَ أَقْرَبِ أَرْضٍ ، وَأَنْزَلْتُكَ مِنْها ، فَتَعودُ إلى بِلادِكَ ، أَوْ تَخْتارُ لَكَ أَرْضًا أُخْرى لا يُحْدِقُ بِكَ فيها خَطَرٌ أَوْ يُطارِدُكَ فيها جُنْدٌ ، فَتَحْيا فيها آمِنًا ، إلى أَنْ يَشاءَ اللهُ . »

هَتَفَ السِّنْدِبادُ في الشَّيْخِ رَشْدانَ : « ماذا تَقولُ ، يا سَيِّدي ، وَكَيْفَ تُفَكِّرُ في مِثْلِ ذَلِكَ الخاطِرِ ؟ لَسْتُ أُنْكِرُ أَنَّني في البِدايَةِ كُنْتُ مُتَخَوِّفًا مِنْ رِحْلَتِكَ المَجْهولَةِ وَأَرْغَبُ في عَدَمِ المُشارَكَةِ فيها بِأَيِّ ثَمَنٍ ، وَلَكِنّي الآنَ بَعْدَ أَنْ أَدْرَكْتَ غَرَضَكَ النَّبيلَ ، فَلَنْ أُفارِقَكَ لَحْظَةً واحِدَةً حَتّى نُتِمَّ مُهِمَّتَنا ، مَهْما تَكُنِ المَخاطِرُ الَّتي تَعْتَرِضُنا أَوْ أَسْبابُ المَوْتِ الَّتي تَنْتَظِرُنا . »

احْتَضَنَ الشَّيْخُ رَشْدانُ السِّنْدِبادَ في قُوَّةٍ ، وَقالَ لَهُ بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ : « هَذا صَنيعٌ لَنْ أَنْساهُ لَكَ أَبَدًا ، أَيُّها الفَتى الشُّجاعُ . وَلَوْ كانَ لِيَ ابْنٌ ، ما أَحْبَبْتُهُ أَكْثَرَ مِمّا أُحِبُّكَ . »

rofoyo

فَتَرَقْرَقَتِ الدُّموعُ في عَيْني السِّنْدِبادِ تَأَثُّرًا ، وَصارَ يَتَطَلَّعُ إلى الأُفُقِ البَعيدِ ، وَكَأَنَّهُ يَتَعَجَّلُ الوُصولَ إلى أَرْضِ الجَليدِ ، وَقَدْ تاقَتْ نَفْسُهُ إلى ارْتِيادِها وَالمُغامَرَةِ فيها ، مَهْما تَكُنْ مَخاطِرُها الجَمَّةُ .

الفَصْلُ الخامِسُ
أَرْضُ الأَهْوالِ

اتَّخَذَتِ السَّفينَةُ طَريقَها إلى المُحيطِ الهِنْدِيِّ تَدْفَعُها رِياحٌ مَوْسِمِيَّةٌ هادِئَةٌ ، وَتَوَقَّفَتْ أمامَ شَواطِئِ الهِنْدِ ، فَأَدْهَشَ السِّنْدِبادَ ثَراءُ بَعْضِ أَهْلِها الفاحِشُ مِمَّنْ كانوا يَقْتَنونَ الوُحوشَ لِلتَّسْلِيَةِ ، وَفَقْرُ أَغْلَبِ سُكّانِها . وَزادَ عَجَبُهُ مِنْ مَناظِرِ مَعابِدِهِمُ الفاخِرَةِ ، وَغُموضِ كَهَنَتِها .

وَشاهَدَ عَجَبًا في الأَسْواقِ مِنَ الحُواةِ الَّذينَ يَأْكُلونَ النّارَ ، وَيَسيرونَ فَوْقَ الزُّجاجِ وَجَمَراتِ النّارِ ، وَيَرْقُدونَ فَوْقَ فِراشٍ تَبْرُزُ مِنْهُ أَسِنَّةٌ مُدَبَّبَةٌ في حِدَّةِ السَّكاكينِ .

وَبَعْدَها أَبْحَرَتِ السَّفينَةُ شَرْقًا حَتّى بَلَغَتْ بِلادَ الصّينِ ، فَمَكَثَ السِّنْدِبادُ عَلى شَواطِئِها يَوْمَيْنِ أَيْضًا ، يَتَجَوَّلُ في أَسْواقِها بِصُحْبَةِ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، فَكانَ يَعْجَبُ مِنْ كُلِّ ما

fofoyoyo

تَقَعُ عَلَيْهِ عَيْناهُ مِنْ عاداتٍ وَلَهَجاتٍ في الحَديثِ ، وَمَلابِسَ غَريبَةٍ ، وَأَنْواعٍ مِنَ الأَطْعِمَةِ لَمْ يَأْلَفْها ، وَمَنازِلَ عَجيبَةِ الشَّكْلِ مُشَيَّدَةٍ مِنَ الأَخْشابِ وَالوَرَقِ المُلَوَّنِ ، تُضيئُها مَصابيحُ زَيْتِيَّةٌ تُحيطُها كُراتٌ مِنَ الوَرَقِ لا تَشْتَعِلُ .

وَشاهَدَ في السّاحاتِ مُقاتِلينَ عَلى دَرَجَةٍ بالِغَةٍ مِنَ المَهارَةِ في القِتالِ ، دونَ اسْتِعْمالِ أيِّ سِلاحٍ . وَكانَ الشَّيْخُ رَشْدانُ عَليمًا بِلُغَةِ أَهْلِ البِلادِ ، فَحادَثَهُمْ

وَحادَثوهُ ، وَابْتاعَ مِنْهُمْ كُلَّ ما يَلْزَمُ رِحْلَتَهُ .

وَ واصَلَتِ السَّفينَةُ إبْحارَها في اتِّجاهِ الشَّمالِ الشَّرْقِيِّ إلى بِلادِ هايانَ (اليابان) ، الَّتي يَسْكُنُها قَوْمٌ قِصارُ القامَةِ صُفْرُ الوُجوهِ صِغارُ العُيونِ ، عَلى دَرَجَةٍ كَبيرةٍ مِنَ المَعْرِفَةِ وَالحَضارَةِ ، يَحْكُمُهُمْ إمْبراطورٌ عَظيمُ الشَّأنِ .

وَبَعْدَها أَلْقَتِ السَّفينَةُ مَراسِيَها في عَدَدٍ مِنَ الجُزُرِ ، حَيْثُ كانَ الشَّيْخُ رَشْدانُ يُبادِلُ إحْدى جواهِرِهِ بِعَدَدٍ كَبيرٍ مِنَ الأَغْنامِ الحَيَّةِ وَسِلالِ الفاكِهَةِ وَالخَضْراواتِ الطّازَجَةِ ،

fofoyoyo

وَالدَّقيقِ وَبَراميلِ المِياهِ العَذْبَةِ ، وَفي آخِرِ ميناءٍ راحَ الشَّيْخُ يُكَدِّسُ سِلالَ الفاكِهَةِ ، وَالمياهَ ، وَالأغْنامَ ، فَأدْرَكَ السِّنْدِبادُ أنَّهُ لا تَزالُ أمامَهُمْ رِحْلَةٌ شاقَّةٌ طويلَةٌ إلى أرْضِ الجَليدِ .

وَاسْتَمَرَّتِ السَّفينَةُ في إبْحارِها بَعْدَ مُغادَرَتِها بلادَ هايان مُدَّةَ شَهْرٍ كامِلٍ ، وَقَدْ بَدَأَ الجَوُّ يَزْدادُ بُرودَةً ، وَأخَذَتْ تَهُبُّ عَلى السَّفينَةِ وَبَحّارَتِها رياحٌ قارِسَةُ البُرودَةِ ، وَأخَذَ الثَّلْجُ يَتَساقَطُ مِنَ السَّماءِ في شَكْلِ كُراتٍ صَغيرَةٍ . وَكانَ المَشْهَدُ بَديعًا فَأخَذَ السِّنْدِبادُ يُراقِبُهُ ، بِرَغْمِ إحْساسِهِ البالِغِ بِالبَرْدِ . وَكانَتْ مُشْكِلَةُ البَحّارَةِ الوَحيدَةُ هِيَ البَرْدَ القارِسَ الَّذي لَمْ يَتَعَوَّدوهُ ، فَأمَرَهُمُ الشَّيْخُ رَشْدانُ بِذَبْحِ الخِرافِ الحَيَّةِ ، وَحِياكَةِ صوفِها وَجُلودِها كَأرْدِيَةٍ تَقيهِمْ مِنْ شَرِّ البُرودَةِ . أمّا لُحومُ الخِرافِ فَلَمْ يَكُنْ يَخْشى مِنْ فَسادِها بِسَبَبِ بُرودَةِ الطَّقْسِ ، الَّذي يَقْرُبُ مِنَ التَّجَمُّدِ .

وَسَأَلَ السِّنْدِبادُ الشَّيْخَ رَشْدانَ ، وَالطَّقْسُ يَزْدادُ بُرودَةً كُلَّ يَوْمٍ : « هَلْ تَبَقّى الكَثيرُ مِنْ رِحْلَتِنا ؟»

أجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « إنَّ وُجْهَتَنا الأخيرَةَ هِيَ بِلادُ قَوْمٍ يُدْعَوْنَ (الإسْكيمو) ، وَأمامَنا أُسْبوعانِ حَتّى نَبْلُغَ شَواطِئَ البِلادِ ، وَنَجْتازَ أنْهارَها . »

فَقالَ السِّنْدِبادُ مُحَدِّثًا نَفْسَهُ ، وَهُوَ يُقْفِلُ مَلابِسَهُ عَلى نَفْسِهِ : « فَما الحالُ في تِلْكَ البِلادِ ، إذا كانَ الطَّقْسُ تِلْكَ البُرودَةَ ، وَنَحْنُ لَمْ نَبْلُغْ مَحَطَّتَنا الأخيرَةَ بَعْدُ ؟»

فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ رَشْدانُ وَقالَ : « لَقَدْ قَطَعْنا نِصْفَ الأرْضِ في إبْحارِنا ، يا سِنْدِبادُ ، وَجُبْنا مَناطِقَ شَديدَةَ الحَرارَةِ ، إلى بِلادٍ شَديدَةِ البُرودَةِ ، وَقابَلْنا أجْناسًا وَأشْكالاً مِنَ البَشَرِ ، لَمْ تَحْلُمْ بِوُجودِهِمْ أبَدًا . فَما رَأيُكَ في كُلِّ ما صادَفْناهُ ؟»

أجابَهُ السِّنْدِبادُ وَقَدِ الْتَمَعَتْ عَيْناهُ بِبَريقِ المُغامَرَةِ وَارْتِيادِ المَجْهولِ : « لَيْسَ أرْوَعَ مِنَ السَّفَرِ وَالتَّرْحالِ وَمُشاهَدَةِ البِلادِ وَالنّاسِ ، فَسُبْحانَ اللهِ الَّذي جَعَلَ مِنْ آياتِهِ الاخْتِلافَ بَيْنَ النّاسِ وَالأرْضِ وَالبَحْرِ ، وَحَتّى طُيورِ السَّماءِ . وَأعْتَقِدُ أنَّني بَعْدَ كُلِّ ما رَأيْتُهُ سَوْفَ أرْتَحِلُ كَثيرًا

fofoyoyo

في كُلِّ البِلادِ ، مَتّى عُدْتُ لِبَغْدادَ ، وَسَيَصيرُ البَحْرُ بِساطي وَأَشْرِعَةُ السُّفُنِ رايَتي ، وَنُجومُ السَّماءِ مُرْشِدي . »

* * *

وَمَرَّ أُسْبوعانِ كأَنَّهُما شَهْرانِ ، بِسَبَبِ بُرودَةِ الطَّقْسِ الَّتي أَخَذَتْ في الزِّيادَةِ ، فَزادَ الجَميعُ مِنْ ثِقَلِ مَلابِسِهِمْ ، وَصَنَعوا لأَيْديهِمْ قَفافيزَ وَلأَقْدامِهِمْ أَحْذِيَةً مِنْ صوفِ الخِرافِ . وَفَجْأَةً لاحَ عَلى البُعْدِ في قَلْبِ المِياهِ ، جَبَلٌ شاهِقٌ عَظيمُ الارْتِفاعِ ، في لَوْنِ الثَّلْجِ النّاصِعِ ، فَصاحَ السِّنْدِبادُ مَبْهورًا : « سُبْحانَ الله ، جَبَلٌ لَهُ لَوْنُ الثَّلْجِ ، في قَلْبِ المِياهِ ؟ »

أَجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « بَلْ هُوَ جَبَلٌ مِنَ الثَّلْجِ بِالفِعْلِ . »

رَدَّدَ السِّنْدِبادُ في ذُهولٍ : « جَبَلٌ مِنْ الثَّلْجِ . . هَذا أَعْجَبُ ما رَأَيْتُ . . إِنَّهُ ضَخْمٌ جِدًّا . »

قالَ الشَّيْخُ مُبْتَسِمًا : « ماذا سَتَقولُ إِذَنْ لَوْ عَرَفْتَ أَنَّ ما يَبْدو مِنْ هَذا الجَبَلِ لِلْعُيونِ لَيْسَ سِوى جُزْءٍ مِنْ ثَمانِيَةِ

أَجْزاءٍ مِنْ حَجْمِهِ ، فَإِنَّ بَقِيَّتَهُ تَخْتَفي تَحْتَ سَطْحِ الماءِ ، وَلا يَطْفو مِنْها غَيْرُ ذَلِكَ الجُزْءِ اليَسيرِ ، وَيَتَغَيَّرُ حَجْمُ هَذِهِ الجِبالِ الثَّلْجِيَّةِ بِاسْتِمْرارِ حَرَكَتِها ، فَتَنْقُصُ أَوْ تَزيدُ حَسَبَ الأَحْوالِ . »

لَبِثَ السِّنْدِبادُ يُراقِبُ جِبالَ الثَّلْجِ حَوْلَهُ بِعَيْنَيْنِ واسِعَتَيْنِ وَكَأَنَّهُ يَسْتَجْلي أَسْرارَها ، ثُمَّ تَطَلَّعَ إِلى الأُفُقِ البَعيدِ مُراقِبًا السَّماءَ والشَّمْسَ الغارِبَةَ ، وَقالَ : « إِنَّني أُلاحِظُ أَنَّنا كُلَّما تَقَدَّمْنا صَوْبَ الشَّمالِ صارَ النَّهارُ أَقْصَرَ ، وَالشَّمْسُ لا تَلْبَثُ أَكْثَرَ مِنْ ساعَةٍ أَوِ اثْنَتَيْنِ في قَلْبِ السَّماءِ ، وَأَشِعَّتُها بارِدَةٌ ، كَأَنَّها مَرْسومَةٌ في كَبِدِ السَّماءِ المُلَبَّدِ بِالْغُيومِ الثَّقيلَةِ . »

أَجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ بِلَهْجَةٍ يَفوحُ مِنْها بَعْضُ القَلَقِ : « هَذا لأَنَّنا عَلى أَعْتابِ الشِّتاءِ ، وَأَرْجو أَلا تَتَجَمَّدَ مِياهُ البَحْرِ حَوْلَنا ، قَبْلَ أَنْ نَصِلَ إِلى غايَتِنا . »

سَأَلَ السِّنْدِبادُ : « هَلْ سَيَتَجَمَّدُ البَحْرُ حَوْلَنا ؟ »

أَجابَهُ الشَّيْخُ في أَناةٍ : « بَلْ إِنَّهُ يَتَحَوَّلُ إِلى مِرْآةٍ

fofoyo

مَصْقولَةٍ مِنَ الجَليدِ الشَّديدِ الصَّلابَةِ . »

تَساءَلَ السِّنْدِبادُ في حَيْرَةٍ : « كَيْفَ سَنُبْحِرُ بَعْدَها ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ ضاحِكًا : « سَنَكونُ مُضْطَرّينَ لِتَرْكِ السَّفينَةِ ، وَالبَحْثِ عَمَّنْ يَبيعُنا زَحّافَةً بِكِلابِها ، فَهِيَ الوَسيلَةُ الوَحيدَةُ لِلتَّجْوالِ فَوْقَ الجَليدِ ، وَبَعْدَها يُمْكِنُكَ أَنْ تُقْسِمَ صادِقًا ، أَنَّكَ سِرْتَ فَوْقَ مِياهِ البَحْرِ ، دونَ أَنْ تَكونَ كاذِبًا . »

عادَ السِّنْدِبادُ يَسْأَلُ في إلْحاحٍ : « وَهَلْ تَجُرُّ الكِلابُ الأَشْياءَ هُناكَ مِثْلَ الخُيولِ في بِلادِنا ؟ »

أَجابَهُ الشَّيْخُ : « إنَّها كِلابٌ مِنْ نَوْعٍ خاصٍّ شَديدِ التَّوَحُّشِ ، تَعْوي كَالذِّئابِ ، وَلا تَنْبَحُ مِثْلَ بَقِيَّةِ الكِلابِ ، وَيَحْتاجُ كُلٌّ مِنْها إلى قَدْرٍ مِنَ اللَّحْمِ ، أَكْثَرَ مِمّا يَحْتاجُهُ صاحِبُها ، وَإذا لَمْ يُقَيِّدْها جَيِّدًا في سُروجِها ، هاجَمَتْهُ وَالْتَهَمَتْهُ وَلَمْ تَتْرُكْ مِنْهُ سِوى العِظامِ . »

وَاسْتَدارَ السِّنْدِبادُ عائِدًا إلى قَمْرَتِهِ في صَمْتٍ ، مُفَكِّرًا

في كُلِّ ما سَمِعَهُ مِنْ غَرائِبَ وَعَجائِبَ ، وَقَدْ أَخَذَهُ البَرْدُ الشَّديدُ ، فَوَقَعَ بَصَرُهُ عَلى جَبَلٍ ثَلْجِيٍّ عائِمٍ ، يوشِكُ أَنْ يَنْقَضَّ على السَّفينَةِ مِنَ الخَلْفِ ، وَيُهَشِّمَها ، فَصَرَخَ بِأَعْلى صَوْتِهِ ، وَانْدَفَعَ إلى حِبالِ أَشْرِعَةِ السَّفينَةِ ، يَجْذِبُها لِيُغَيِّرَ اتِّجاهَها . وَأَدْرَكَ البَحّارَةُ الزُّنوجُ ما يَحيقُ بِهِمْ مِنْ خَطَرٍ دونَ تَنْبيهٍ ، فَانْدَفَعوا يَتَسَلَّقونَ الأَشْرِعَةَ كَالقُرودِ الماهِرَةِ ، وَأَداروها بِسُرْعَةٍ لِتَسْتَقْبِلَ الرّيحَ مِنِ اتِّجاهٍ مُخالِفٍ ، فَغَيَّرَتِ السَّفينَةُ اتِّجاهَها في اللَّحْظَةِ الأَخيرَةِ ، وَمَسَّتْ طَرَفَ جَبَلِ الجَليدِ في صَوْتٍ مُدَوٍّ ، وَتَهَشَّمَتْ بَعْضُ أَخْشابِ الحاجِزِ ، ثُمَّ انْفَلَتَتْ مُبْتَعِدَةً ، فَتَنَفَّسَ السِّنْدِبادُ الصُّعَداءَ ، وَقالَ في ارْتِياحٍ : « الحَمْدُ للهِ ! »

وَأَسْرَعَ بِإصْلاحِ الحاجِزِ فَأَعادَهُ كَما كانَ . وَمِنْ بَعيدٍ لاحَتْ أَرْضٌ تَكْسوها بَعْضُ الأَشْجارِ المُغَطّاةِ بِالثُّلوجِ ، وَبَعْضُ الحَشائِشِ وَالطَّحالِبِ ، فَصَرَخَ السِّنْدِبادُ بِفَرْحَةٍ : « لَقَدْ وَصَلْنا لِلأَرْضِ . »

fofoyoyo

انْدَفَعَ الشَّيْخُ رَشْدانُ إلى الحاجزِ ، وَتَأمَّلَ الشَّاطِئَ البَعيدَ ، وَلَهَثَ بِفَرْحَةٍ قائلاً : « إنَّها كَما وَصَفَها أبي تَمامًا ، وَرَسَمَ مَكانَها فَوْقَ الخَرائِطِ في كِتابِهِ ، الَّذي أَوْدَعَهُ سِرًّا لَدَيَّ ، وَقَدْ بَيَّنَ فيها أنَّ هُناكَ نَهْرًا قَريبًا ، عَلَيْنا عُبورُهُ ، لِنَصيرَ في قَلْبِ أَرْضِ الإسْكيمو ، وَعَلَيْنا بُلوغَهُ قَبْلَ حُلولِ الظَّلامِ . »

وَلَكِنَّ اللَّيْلَ أَطْبَقَ عَلى المَكانِ سَريعًا ، فَصارَ ظَلامًا حالِكًا لا يَلْمَعُ فيهِ شَيْءٌ ، سِوى النُّجومِ البَعيدَةِ .

وَقالَ السِّنْدِبادُ لِلشَّيْخِ رَشْدانَ : « عَلَيْنا بِالرُّسُوِّ على الشّاطِئِ ، وَالمَبيتِ حَتّى الصَّباحِ ، ثُمَّ نُواصِلُ إبْحارَنا عِنْدَ شُروقِ الصَّباحِ . »

وَلَكِنَّ الشَّيْخَ قالَ قَلِقًا : « مَنْ يُدْرينا ؟ قَدْ يَتَجَمَّدُ البَحْرُ لَيْلاً . لا وَقْتَ لَدَيْنا ، وَعَلَيْنا العُثورُ على مَصَبِّ النَّهْرِ القَريبِ في أَسْرَعِ وَقْتٍ ، وَإلا وَقَعْنا في مِصْيَدَةٍ لا فِكاكَ مِنْها ، فَهَذا البَحْرُ إذا تَجَمَّدَ حَوْلَنا ، ضَغَطَ على سَفينَتِنا وَهَشَّمَها بِضَغْطِهِ ، فَيُحَوِّلُها إلى أَلْواحٍ مُتَناثِرَةٍ مِنَ

الأَخْشابِ . »

أَخَذَ البَحّارَةُ المُجْهَدونَ يَعْمَلونَ دونَ شَكْوى ، وَقَدْ أَوْشَكوا عَلى التَّجَمُّدِ مِنَ البَرْدِ . وَعِنْدَ الفَجْرِ ظَهَرَ مَصَبُّ النَّهْرِ أمامَهُمْ ، فَأَسْرَعوا بِاجْتِيازِهِ في تَهْليلٍ وَفَرْحَةٍ .

وَقالَ الشَّيْخُ رَشْدانُ لِلسِّنْدِبادِ : « لا خَوْفَ الآنَ ، فَقَدْ صِرْنا في قَلْبِ أَرْضِ الجَليدِ ، وَعَلَيْنا بِالحُصولِ عَلى بَعْضِ الرّاحَةِ ، قَبْلَ شُروقِ شَمْسِ الصَّباحِ . »

وَأَمَرَ بَحّارَتَهُ فَانْقَسَموا لِفَريقَيْنِ يَتَناوَبانِ العَمَلَ وَالرّاحَةَ . وَأَوى الشَّيْخُ وَالسِّنْدِبادُ إلى قَمْرَتَيْهِما ، وَغَرِقا في نَوْمٍ عَميقٍ . ثُمَّ اسْتَيْقَظا في الصَّباحِ عَلى صُراخٍ عَنيفٍ ، وَخَرَجا فَوَجَدا البَحّارَةَ وَقَدْ بَدا عَلَيْهِمُ الذُّهولُ ، وَهُمْ يُشيرونَ بِأَيْديهِمْ إشاراتٍ غَيْرَ مَفْهومَةٍ ، فَصَعِدَ السِّنْدِبادُ وَالشَّيْخُ رَشْدانُ لِسَطْحِ السَّفينَةِ ، فَوَقَعَتْ عُيونُهُما عَلى أَعْجَبِ مَشْهَدٍ يُمْكِنُ أَنْ تَراهُ عَيْنُ إنْسانٍ .

كانَتِ السَّفينَةُ مُتَوَقِّفَةً مَكانَها ، وَقَدْ أَحاطَ بِها الجَليدُ

tofoyo

مِنْ كُلِّ اتِّجاهٍ ، بَعْدَ أنْ تَجَمَّدَ النَّهْرُ وَاسْتَحالَ عُبورُهُ .

كانَ المَشْهَدُ عَجيبًا مُدْهِشًا ، وَأغْرَبَ مِنَ الخَيالِ ، فَهَتَفَ السِّنْدِبادُ : « سُبْحانَ الله ! »

وَهَزَّ الشَّيْخُ رَشْدانُ رَأسَهُ قائِلاً : « كَما وَصَفَهُ أبي تَمامًا . »

وَسَأَلَ السِّنْدِبادُ رَفيقَهُ في دَهْشَةٍ : « لِماذا لَمْ يُهَشِّمْ جَليدُ النَّهْرِ سَفينَتَنا كَما كُنْتَ تَخْشى أنْ يَفْعَلَ بِنا البَحْرُ ، لَوْ تَجَمَّدَ حَوْلَنا ؟ »

أَجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « هَذا لأَنَّ ضَغْطَ مِياهِ البَحْرِ إذا تَحَوَّلَتْ إلى جَليدٍ ، يَكونُ أقْسى آلافَ المَرّاتِ مِنْ ضَغْطِ جَليدِ النَّهرِ . »

هَزَّ السِّنْدِبادُ رَأْسَهُ ، ثُمَّ تَساءَلَ وَهُوَ يَتَطَلَّعُ حَوْلَهُ : « وَما العَمَلُ الآنَ ؟ كَيْفَ سَنَجولُ في هَذِهِ الأَرْضِ ؟ »

أَجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « لَيْسَ أمامَنا سِوى اسْتِئْجارِ أَوْ شِراءِ زَحّافَةٍ بِكِلابِها ، وَقَبْلَ ذَلِكَ عَلَيْنا العُثورَ عَلى دَليلٍ

مِنْ أهالي تِلْكَ الأَرْضِ لِيُرْشِدَنا إلى مَكانِ القُرْصانِ ، فَلا شَكَّ أنَّهُ شوهِدَ في هَذِهِ الأنْحاءِ ، بِسَبَبِ اخْتِلافِ لَوْنِهِ . »

سَأَلَ السِّنْدِبادُ : « أيْنَ سَنَعْثُرُ عَلى هَذا الدَّليلِ وَالزَّحّافَةِ وَكِلابِها ؟ »

قالَ الشَّيْخُ رَشْدان : « لَسْتُ أدْري . وَلَكِنْ لَيْسَ أمامَنا مِنْ سَبيلٍ غَيْرُ البَحْثِ . »

قالَ السِّنْدِبادُ في تَوَتُّرٍ : « لَوْ أنَّنا غادَرْنا السَّفينَةَ ، لَتَجَمَّدْنا فَوْقَ الجَليدِ . »

أجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ مُطْمِئِنا : « سَوْفَ نُضاعِفُ مِنْ مَلابِسِنا وَجُلودِ الخِرافِ ، وَسَنَصْنَعُ أَحْذِيَةً مِنْها أيْضًا ، وَلَنْ يُعيقَنا شَيْءٌ عَنْ مُهِمَّتِنا ، وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَيْنا مُغادَرَةُ سَفينَتِنا قَبْلَ أنْ يَقْسُوَ الجَليدُ حَوْلَ السَّفينَةِ ، وَيَصيرَ صالِحًا لِلسَّيْرِ فَوْقَهُ ، وَعَلَيَّ أيْضًا حَلْقَ لِحْيَتي ، وَإلا تَحَوَّلَ هَواءُ زَفيريَ السّاخِنُ ، إلى نُدَفٍ مِنَ الثَّلْجِ فَوْقَها ، بِسَبَبِ تَجَمُّدِهِ لَحْظَةَ خُروجِهِ مِنْ فمي . »

fofoyoyo

تَأمَّلَ السِّنْدِبادُ الشَّيْخَ رَشْدان صامِتًا ، وَخِلالَ ساعاتِ النَّهارِ الَّتي لَمْ تُشْرِقْ فيها الشَّمْسُ غَيْرَ ساعَةٍ إلا قَليلاً ، تَمَكَّنَا مِنْ صُنْعِ المَلابِسِ وَالأحْذِيَةِ المَطْلوبَةِ ، وَبَقِيا فَوْقَ السَّفينَةِ ثَلاثَةَ أيّام ، حَتّى اسْتَوْثَقا مِنْ تَصَلُّبِ الجَليدِ حَوْلَها ، فَحَلَقَ الشَّيْخُ رَشْدانُ لِحْيَتَهُ بالمُوسى ، وَبَدا مَنْظَرُهُ مُخْتَلِفًا بَعْضَ الشَّيْءِ في عَيْني السِّنْدِبادِ .

وَتَسَلَّحَ السِّنْدِبادُ بِبَلْطَةٍ وَسِكّينٍ لِلشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَتَأهَّبا لِمُغادَرَةِ السَّفينَةِ . وَأَوْصى الشَّيْخُ رَشْدانُ بَحّارَتَهُ بِعَدَمِ مُغادَرَةِ السَّفينَةِ ، وَهَبَطَ فَوْقَ الجَليدِ بِالْحِبالِ مَعَ السِّنْدِبادِ ، ثُمَّ سارا فَوْقَ الجَليدِ الزَّلِقِ النّاعِمِ .

وَاسْتَمَرَّ الاثْنانِ في سَيْرِهِما ساعاتٍ فَوْقَ الجَليدِ . وَصادَفا عَديدًا مِنَ الثَّعالِبِ والأَرانِبِ البَرِّيَّةِ ، ثُمَّ جَلَسا لِلرّاحَةِ وَتَناوَلا بَعْضَ الطَّعامِ الَّذي حَمَلاهُ مَعَهُما . وَبَعْدَها بَدَأَتِ الرِّياحُ تَشْتَدُّ وَتَصْفِرُ ، فَقالَ الشَّيْخُ رَشدانُ قَلِقًا : « يَبْدو أنَّ عاصِفَةً ثَلْجِيَّةً سَتَهُبُّ بَعْدَ قَليلٍ ، وَعَلَيْنا البَحْثَ عَنْ مَكانٍ نَلْتَجِئُ إلَيْهِ . »

وَعَبَرا صَفْحَةَ النَّهْرِ المُتَجَمِّدِ إلى الأرْضِ الجَليدِيَّةِ الَّتي انْتَشَرَتْ فيها التِّلالُ، باحِثَيْنِ عَنْ بَعْضِ الأشْجارِ أوْ أحَدِ الكُهوفِ ، وَلَكِنَّهُما تَوَقَّفا بَعْدَ قَليلٍ مَرْعوبَيْنِ ؛ فَأمامَهُما عَلى مَسافَةِ أمْتارٍ قَليلَةٍ ، شاهَدا دُبًا مُتَوَحِّشًا ضَخْمًا قَدِ انْتَصَبَ فَوْقَ قَدَمَيْهِ الخَلْفِيَّتَيْنِ .

fofoyoyo

وَزَأَرَ الدُّبُّ في وَحْشِيَّةٍ ، ثُمَّ انْدَفَعَ نَحْوَهُما ، وَقَدْ أعْماهُ الجوعُ . وَصَرَخَ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « حاذِرْ ، يا سِنْدِبادُ . »

وَلَكِنَّ الدُّبَّ اتَّجَهَ إلى الشَّيْخِ لا السِّنْدِبادِ ، وَهَوى فَوْقَ صَدْرِهِ بِذِراعِهِ ، فَطَوَّحَ بالشَّيْخِ رَشْدانَ بَعيدًا غارِقًا في دِمائِهِ . وَانْفَجَرَ غَضَبُ السِّنْدِبادِ ، فَانْدَفَعَ نَحْوَ الدُّبِّ ، قَبْلَ أنْ يَقومَ بِتَمْزيقِ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَقَفَزَ فَوْقَ ظَهْرِهِ وَعاجَلَهُ بِضَرْبَةٍ مِنْ بَلْطَتِهِ في صَدْرِهِ فَأصابَتْ قَلْبَهُ، فَزَأَرَ الدُّبُّ في تَوَحُّشٍ وَسالَتْ دِماؤُهُ ، ثُمَّ تَجَمَّدَتْ ، وَلَكِنَّهُ عاجَلَ السِّنْدِبادَ بِضَرْبَةٍ قاسِيَةٍ أفْقَدَتْهُ وَعْيَهُ ، ثُمَّ تَرَنَّحَ الدُّبُّ وَسَقَطَ مَيِّتًا دونَ حَراكٍ .

الفَصْلُ السّادِسُ
عَجائِبُ أرْضِ الجَليدِ

لَمْ يَدْرِ السِّنْدِبادُ كَمْ مِنَ الوَقْتِ انْقَضى عِنْدَما فَتَحَ عَيْنَيْهِ، فَطالَعَتْهُ غِشاوَةٌ لَمْ يُمَيِّزْ بِسَبَبِها الأشْياءَ حَوْلَهُ .

وَأحَسَّ بِآلامٍ في كُلِّ جَسَدِهِ وَكَأنَّ جَبَلاً تَهاوى فَوْقَهُ . وَتَذَكَّرَ كُلَّ ما مَرَّ بِهِ وَصِراعَهُ مَعَ الدُّبِّ المُخيفِ . وَتَساءَلَ السِّنْدِبادُ إنْ كانَ لا يَزالُ حَيًّا ، أَمْ أنَّهُ انْتَقَلَ إلى العالَمِ الآخَرِ ؟

وَتَذَكَّرَ السِّنْدِبادُ الشَّيْخَ رَشْدانَ فَنَدَّتْ عَنْهُ آهَةُ أَلَمٍ ، وَجاهَدَ لِيَفْتَحَ عَيْنَيْهِ ، وَتَنَبَّهَ إلى أنَّهُ راقِدٌ في مَكانٍ غَريبٍ ، كانَ أشْبَهَ بِحُجْرَةٍ واسِعَةٍ غُطِّيَتْ جُدْرانُها بِجُلودِ لِحَيواناتٍ غَريبَةٍ ذاتِ فِراءٍ كَثيفٍ . وَقَدْ تَدَلَّتْ مِنَ الحَوائِطِ مَجْموعَةٌ مِنَ الحِرابِ وَفُكوكِ أسْنانٍ غَريبَةٍ

fofoyoyo

لِحَيَوانات يَجْهَلُها .

وَشاهَدَ في الرُّكْنِ إناءً مُفَلْطَحًا يَمْتَلِئُ بِزَيْتٍ غَريبٍ غُمِسَتْ فيهِ زُبالَةٌ مِنَ الطَّحالِبِ الجافَّةِ ، الَّتي اشْتَعَلَ طَرَفُها فَأضاءَتِ المَكانَ بِقَبَسٍ مِنَ النّورِ . وَكانَ الفِراشُ الَّذي يَرْقُدُ عَلَيْهِ ناعِمًا لَيِّنًا ، وَلَكِنْ بِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ أَحَسَّ السِّنْدِبادُ بِقَليلٍ مِنَ البَرْدِ فَانْكَمَشَ في رِقْدَتِهِ . وَتَنَبَّهَ إلى أَنَّهُ يَرْتَدي مَلابِسَ غَريبَةً : قَميصًا مِنْ فِراءٍ ثَقيلٍ ، وَغِطاءً لِلرَّأْسِ ، وَقُفّازًا مَصْنوعًا مِنْ فَرْوٍ عَجيبٍ ، وَسِرْوالاً مِنَ الفِراءِ أَيْضًا .

وَحاوَلَ السِّنْدِبادُ أَنْ يَنْهَضَ وَيُغادِرَ فِراشَهُ ، وَلَكِنَّ قُوَّتَهُ لَمْ تُطاوِعْهُ ، وَشَعَرَ بِإعْياءٍ ، وَخُيِّلَ لَهُ أَنَّهُ يَسْمَعُ أَصْواتَ نُباحِ كِلابٍ بَعيدَةً . وَكانَ صَوْتُ النُّباحِ أَقْرَبَ إلى العُواءِ ، وَيَخْتَلِطُ بِزَمْجَرَةِ عاصِفَةٍ عاتِيَةٍ ، ثُمَّ أَحَسَّ السِّنْدِبادُ بِالنُّعاسِ يَغْزو جَفْنَيْهِ ، فاسْتَغْرَقَ في سُباتٍ عَميقٍ .

وَبَعْدَ وَقْتٍ تَناهَتْ إلى أُذُنَيْهِ أَصْواتٌ قَريبَةٌ ، وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ في بُطْءٍ فَطالَعَهُ وَجْهٌ غَريبٌ يُحَدِّقُ فيهِ عَلى مَسافَةٍ

قَريبَةٍ ؛ وَقَدِ ارْتَدى صاحِبُهُ غِطاءً لِلرَّأْسِ غَريبَ الشَّكْلِ ، امْتَدَّ مِنْ رَأْسِهِ وَحَتّى كَتِفَيْهِ ، فَشَهِقَ السِّنْدِبادُ لِلْمُفاجَأَةِ ،

fofoyo

وَلَكِنَّ الرَّجُلَ الغَريبَ مَدَّ يَدَهُ يُرَبِّتُ فَوْقَ وَجْنَةِ السِّنْدِبادِ مُطَمْئِنًا ، وَالْتَقَطَ مِنْ مَكانٍ قَريبٍ قِدْرًا بِها حَساءٌ كانَ قَدْ وَضَعَهُ فَوْقَ بَعْضِ الحَطَبِ المُتَّقِدِ ، وَمَدَّهُ إلى السِّنْدِبادِ الَّذي الْتَقَطَهُ مِنْهُ ، وَشَرَعَ في احْتِسائِهِ بِرَغْمِ سُخونَتِهِ ، حَتّى أتى عَلَيْهِ . كانَ مَذاقُ الحَساءِ غَريبًا لَكِنَّهُ مَقْبولُ الطَّعْمِ ، وَفي نِهايَةِ القِدْرِ وَجَدَ سِنْدِبادُ بَعْضَ قِطَعِ اللَّحْمِ فَالْتَهَمَها في سُرورٍ ، ثُمَّ تَطَلَّعَ إلى مُضيفِهِ شاكِرًا .

وَأَدْرَكَ السِّنْدِبادُ أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ مِنْ سُكّانِ تِلْكَ الأَرْضِ المُتَجَمِّدَةِ ، وَأَنَّهُ تَمَكَّنَ مِنْ إنْقاذِهِ بِطَريقَةٍ ما . وَاحْتارَ كَيْفَ يَسْأَلُهُ عَنْ مَصيرِ الشَّيْخِ رَشْدانَ وَهُوَ يَجْهَلُ لُغَتَهُ . وَفَجْأَةً قالَ الرَّجُلُ لَهُ في لُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ صَحيحَةٍ ذاتِ لُكْنَةٍ غَريبَةٍ : « هَلْ تَشْعُرُ بِتَحَسُّنٍ ؟ »

اِنْتَفَضَ السِّنْدِبادُ وَتَطَلَّعَ إلى الرَّجُلِ مَذْهولاً ، وَقالَ لَهُ : « إنَّكَ تَتَحَدَّثُ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ الفُصْحى ، فَكَيْفَ تَعَلَّمْتَها ؟ »

اِبْتَسَمَ الرَّجُلُ وَقالَ : « لِهَذا الأَمْرِ حِكايَةٌ طَويلَةٌ لَيْسَ

هَذا وَقْتَها . وَلَعَلَّكَ قَلِقٌ عَلى صَديقِكَ الشَّيْخِ وَتَرْغَبُ في الاطْمِئْنانِ عَلَيْهِ ؟ »

قالَ السِّنْدِبادُ بِلَهْفَةٍ : « أَخْبِرْني ، ماذا جَرى لِلشَّيْخِ رَشْدان ؟ »

أَجابَهُ الرَّجُلُ مُتَرَفِّقًا : « إنَّهُ يَرْقُدُ في مَنْزِلٍ صَغيرٍ مِنَ الثَّلْجِ ، صَنَعْتُهُ لَهُ خِصّيصًا وَجَهَّزْتُهُ بِكُلِّ ما يَحْتاجُهُ ، وَقَدْ أَوْشَكَ عَلى التَّعافي ، وَلَكِنَّ إصابَتَهُ تَحْتاجُ لِبَعْضِ الوَقْتِ لِكَيْ تَلْتَئِمَ ؛ فَقَدْ أَصابَهُ الدُّبُّ بِجِراحٍ عَميقَةٍ في صَدْرِهِ ، وَلَوْلا الجَليدُ لَنَزَفَ حَتّى المَوْتِ ، وَلَكِنَّ البَرْدَ جَمَّدَ جِراحَهُ فَتَوَقَّفَتْ عَنِ النَّزيفِ .

وَصَمَتَ الرَّجُلُ لَحْظَةً ، ثُمَّ قالَ لِلسِّنْدِبادِ : « إنَّكَ بَطَلٌ ، أَيُّها الفَتى ، فَقَدْ تَمَكَّنْتَ وَحْدَكَ مِنْ قَتْلِ أَضْخَمِ دُبٍّ شاهَدْتُهُ في حَياتي ، وَما كانَ في اسْتِطاعَةِ عَشَرَةِ أَشْخاصٍ أَنْ يُنازِلوهُ مُجْتَمِعينَ . »

قالَ السِّنْدِبادُ مُتَأَلِّمًا : « ما كانَتْ حَياتي تَهُمُّني ، ولَمْ

tofoyoyo

أُصارِعِ الدُّبَّ بِرَغْبَةٍ حارَّةٍ في النَّجاةِ وَالحَياةِ ؛ إلا لإنْقاذِ الشَّيْخِ رَشْدانَ، وَهُوَ مِنّي في مَنْزِلَةِ الأبِ والمُعَلِّمِ . »

« ما أكْرَمَ أخْلاقَكَ ، أيُّها الفَتى ، فَهِيَ مُتَوَهِّجَةٌ مُتَأَلِّقَةٌ مِثْلُ شَجاعَتِكَ !»

« وَلَكِنْ أخْبِرْني كَيْفَ عَثَرْتَ عَلَيْنا وَأنْقَذْتَ حَياتَنا ؟»

« لَمْ يَكُنْ لي في ذَلِكَ فَضْلٌ كَبيرٌ ، بَلْ كانَ الفَضْلُ لِكِلابي مِنْ فَصيلَةِ الهسْكي ، وَهِيَ الكِلابُ التّي نَسْتَعْمِلُها في جَرِّ الزَّحّافاتِ ، وَقَدْ فاجَأتْني العاصِفَةُ أنا وَكِلابي قَبْلَ يَوْمَيْنِ ، وَأوْشَكَتْ أنْ تَدْفِنَنا تَحْتَها . وَكانَتِ الكِلابُ توشِكُ عَلى المَوْتِ جوعًا ، وَلَكِنَّها شَمَّتْ رائِحَةَ الدُّبِّ القَتيلِ مِنْ مَسافَةٍ بَعيدَةٍ ؛ فَحادَتْ عَنْ طَريقِها وَجَرَّتِ الزَّحّافَةَ رَغْمًا عَنّي إلى مَكانِ الدُّبِّ ، الَّذي أوْشَكَتِ الثُّلوجُ عَلى دَفْنِهِ تَحْتَها ، فَانْقَضَّتْ عَلَيْهِ الكِلابُ تَنْهَشُهُ وَتُمَزِّقُ لَحْمَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ لَكَ أوْ لِلشَّيْخِ مِنْ أثَرٍ ، وَلَكِنّي أدْرَكْتُ أنَّ هُناكَ شَخْصًا أوْ أشْخاصًا قَريبينَ ، كانَ مَصْرَعُ الدُّبِّ عَلى أيْديهِمْ ، فَشَرَعْتُ أنْبُشُ

في الثَّلْجِ بِرَغْمِ العاصِفَةِ ، فَعَثَرْتُ عَلَيْكُما وَقَدْ أوْشَكْتُما عَلى التَّجَمُّدِ وَالْمَوْتِ ، فَقُمْتُ بِتَمْديدِكُما فَوْقَ الزَّحّافَةِ ، وَسَلَخْتُ جِلْدَ الدُّبِّ وَغَطَّيْتُكُما بِهِ ، وَأسْرَعْتُ عائِدًا بِكُما إلى مَنْزِلي هَذا . وَما كانَ المَنْزِلُ الصَّغيرُ لِيَتَّسِعَ لأكْثَرَ مِنْ واحِدٍ مِنْكُما ؛ فَشَرَعْتُ في تَشْييدِ مَنْزِلٍ آخَرَ مِنَ الثَّلْجِ لِرَفيقِكَ الشَّيْخِ . »

اِرْتَجَفَ السِّنْدِبادُ وَهُوَ يَقولُ : « مَنْزِلٌ مِنَ الثَّلْجِ ؟ ما أشَدَّ بُرودَتَهُ !»

أجابَهُ رَجُلُ الإسْكيمو مُبْتَسِمًا : « بَلْ ما أدْفَأهُ . فَإنَّهُ يَعْمَلُ كَعازِلٍ وَيَصُدُّ البُرودَةَ الَّتي لا يُمْكِنُها أنْ تَتَسَلَّلَ داخِلَهُ ، وَبَعْدَ تَغْطِيَةِ جُدْرانِهِ بِجُلودِ حَيوانِ الكاريبو ، فَإنَّهُ يُصْبِحُ دافِئًا وَمُناسِبًا تَمامًا لِلْحَياةِ بِداخِلِهِ . وَلَعَلَّكَ تَشْعُرُ بِالدِّفْءِ في هَذا المَنْزِلِ ، بِالرَّغْمِ مِنْ أنَّهُ مُشَيَّدٌ مِنَ أنَّهُ مُشَيَّدٌ مِنَ الثَّلْجِ أيْضًا !»

تَطَلَّعَ السِّنْدِبادُ حَوْلَهُ وَتَساءَلَ في دَهْشَةٍ : « هَلْ هَذا المَكانُ الَّذي أرْقُدُ فيهِ ، مَصْنوعٌ مِنَ الثَّلْجِ أيْضًا ؟»

fofoyo

أوْمَأ الرَّجُلُ بِرَأسِهِ مُجيبًا بِنَعَم وَقالَ : « إنَّ هَذِهِ المَساكِنَ الثَّلْجِيَّةَ يَبْنيها سُكّانُ هَذِهِ البِلادِ عادَةً عِنْدَ خُروجِهِمْ لِلصَّيْدِ وَابْتِعادِهِمْ عَنْ بُيوتِهِمُ الأصْلِيَّةِ ، فَقَدْ يُضْطَرُّ أحَدُنا لِلْبَقاءِ فيها شُهورَ الشِّتاءِ كامِلَةً مَعَ كِلابِهِ قَبْلَ أنْ يَعودَ لأَهْلِهِ بِما صادَهُ . »

« ما أَغْرَبَ هَذِهِ الأرْضَ وَالحَياةَ فَوْقَها ! »

« أنْتَ لَمْ تَرَ شَيْئًا بَعْدُ مِنْ عَجائِبِها وَطَرائِفِها . »

« هَلْ يُمْكِنُني الاطْمِئْنانُ عَلى الشَّيْخِ رَشْدانَ وَرُؤْيَتُهُ ؟ »

قالَ رَجُلُ الإسْكيمو الَّذي عَلِمَ السِّنْدِبادُ أنَّ اسْمَهُ « ليمو » : « هَيّا بِنا . وَلَكِنْ عَلَيْكَ أنْ تَرْتَدِيَ هَذا الحِذاءَ أوَّلاً . »

وقَدَّمَ إلى السِّنْدِبادِ حِذاءً مَصْنوعًا مِنْ جِلْدِ غَريبِ الشَّكْلِ ، فَتَأمَّلَهُ السِّنْدِبادُ حائِرًا ، فَقالَ لَهُ ليمو : « لَقَدْ صَنَعْتُهُ عَلى مَقاسِكَ مِنْ جِلْدِ عِجْلِ البَحْرِ . »

اِرْتَدى السِّنْدِبادُ الحِذاءَ صامِتًا . وَلَشَدَّ ما كانَتْ دَهْشَتُهُ

عِنْدَما شاهَدَ رَجُلَ الإسْكيمو يُغادِرُ المَنْزِلَ الثَّلْجِيَّ مِنْ خِلالِ فُتْحَةٍ صَغيرَةٍ أسْفَلَ رُكْنِ المَنْزِلِ ، مَرَّ مِنْ خِلالِها زاحِفًا فَتَبِعَهُ السِّنْدِبادُ وَقَدْ أدْرَكَ أنَّ تِلْكَ المَنازِلَ لا تُقامُ فيها نَوافِذُ أوْ أبْوابٌ . وَفي الخارِجِ كانَتِ السَّماءُ مُظْلِمَةً إلا مِنْ ضَوْءٍ بَعيدٍ غَريبٍ ، أشْبَهَ بِحُزَمٍ مِنَ الضَّوْءِ الخافِتِ المَشوبِ بِصُفْرَةٍ وَحُمْرَةٍ خَفيفَةٍ عَجيبَةٍ ، أتاحَتْ لَهُ تَأمُّلَ تَفاصيلِ المَكانِ . وَشاهَدَ السِّنْدِبادُ مَنْزِلاً اخَرَ صَغيرًا عَلى مَسافَةٍ قَريبَةٍ ، وَعَدَدًا كَبيرًا مِنَ الكِلابِ المَرْبوطَةِ في زَحّافَةٍ كَبيرَةٍ ، وَقَدْ رَقَدَتْ في الثَّلْجِ مُتَجاوِرَةً لِتُدْفِئَ بَعْضُها بَعْضًا . وَلَمْ يَكُنْ مِنْ شَكٍّ أنَّ الكِلابَ وَالزَّحّافَةَ تَخُصُّ ليمو .

وَدَخَلَ الاثْنانِ المَسْكَنَ الثَّلْجِيَّ الآخَرَ زاحِفَيْنِ ، وَشاهَدَ السِّنْدِبادُ الشَّيْخَ رَشْدانَ راقِدًا فَوْقَ فِراءٍ ثَقيلٍ ، وَقَدْ أشْعَلَ ليمو بَعْضَ النّارِ داخِلَ المَسْكَنِ لِتَدْفِئَتِهِ ، فاحْتَضَنَ السِّنْدِبادُ الشَّيْخَ رَشْدانَ ، الَّذي فَتَحَ عَيْنَيْهِ ، وَظَهَرَتْ عَلى وَجْهِهِ عَلاماتُ الألَمِ ، وَغَمْغَمَ بَيْنَ اليَقَظَةِ وَالنَّوْمِ

fofoyoyo

هاتِفًا بِاسْمِ سِنْدِبادَ ، ثُمَّ عادَ إلى سُباتِهِ العَميقِ ؛ فَامْتَلأتْ عَيْنا السِّنْدِبادِ بِالدُّموعِ وَلَكِنَّ ليمو رَبَّتَ فَوْقَ كَتِفِهِ قائِلاً : « سَوْفَ يُشْفى وَيَسْتَعيدُ قُواهُ خِلالَ أيّامٍ ، فَاطْمَئِنَّ . »

وَلَمْ يَسْتَطِعِ السِّنْدِبادُ كَتْمَ فُضولِهِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَسَأَلَ ليمو عَنْ سِرِّ تَعَلُّمِهِ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ ؛ فَأَجابَهُ : « لَقَدْ عَلَّمَني إيّاها رَجُلٌ أَتى يَوْمًا أَرْضَنا ، وَعاشَ هَذا الرَّجُلُ بَيْنَ قَوْمِنا زَمَنًا ، وَأَخْبَرَني أَنَّهُ أتى مِنْ بِلادٍ بَعيدَةٍ تُدْعى بَغْدادَ . »

هَتَفَ السِّنْدِبادُ : « لا بُدَّ أَنَّ هَذا الرَّجُلَ هُوَ والِدُ الشَّيْخِ رَشْدانَ . »

قالَ ليمو : « هَذا هُوَ ما خَمَّنْتُهُ ، فَلِهَذا الرَّجُلِ شَبَهٌ قَوِيٌّ مَعَ رَفيقِكَ . وَلَكِنْ أَخْبِرْني ، أَيُّها الفَتى ، أَيُّ سَبَبٍ أَتى بِكُما إلى أَرْضِنا الوَعْرَةِ وَجَليدِها الدّائِمِ ؟»

فَقَصَّ السِّنْدِبادُ عَلى ليمو سِرَّ مَجيئِهِ هُوَ وَالشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَبَحْثِهِما عَنِ القُرْصانِ الأَسْوَدِ الَّذي اخْتَطَفَ

ابْنَةَ الشَّيْخِ الوَحيدَةَ ، فَضاقَتْ عَينا ليمو وَقالَ : « هَلْ جِئْتُما في طَلَبِ القُرْصانِ الأَسْوَدِ ؟»

سَأَلَهُ السِّنْدِبادُ مُتَلَهِّفًا : « وَهَلْ تَعْرِفُ مَكانَهُ في هَذِهِ الأَرْضِ ؟»

أَجابَهُ رَجُلُ الإسْكيمو : « نَعَمْ ، فَإِنَّ سَوادَ بَشَرَتِهِ وَكَأَنَّها اللَّيْلُ جَعَلَتْهُ شَهيرًا في أَرْضِنا ، فَقَدْ جاءَ إلَيْها قَبْلَ عامٍ وَنِصْفٍ دونَ أَنْ يُفْصِحَ عَنْ سَبَبِ مَجيئِهِ إلى أَرْضِنا الباردَةِ ، وَقَدْ حَمَلَ مَعَهُ صَناديقَ لا حَصْرَ لَها مَليئَةً بِالذَّهَبِ وَالجَواهِرِ وَالنَّفائِسِ ، وَحاوَلَ أَنْ يَعيشَ بَيْنَ قَوْمِنا ، وَأَنْ يَمْنَحَهُمْ مِنْ ذَهَبِهِ وَثَرْوَتِهِ ما يَشاءونَ ، وَلَكِنَّهُمْ رَفَضوهُ بِسَبَبِ غَرابَةِ لَوْنِهِ الَّذي لَمْ يَعْتادوا عَلَيْهِ ، كَما أَنَّ حُكَماءَ أَرْضِنا قالوا إنَّ الشَّرَّ يَنْبَعِثُ مِنْ عَيْنَيْ ذَلِكَ الغَريبِ الأَسْوَدِ ، وَإِنَّ رُوحَهُ يَسودُها الظَّلامُ ، وَإِنَّ اللَّعْنَةَ تَحُلُّ عَلى أَيِّ مَكانٍ تَطَؤُهُ قَدَماهُ ، لِذَلِكَ رَفَضَهُ أَهْلُنا فَاضْطُرَّ لِلإقامَةِ وَحيدًا مَنْبوذًا عَلى أَطْرافِ أَرْضِنا ، لا يَزورُ أَوْ يُزارُ . وَالآنَ أُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ ما قالَهُ حُكَماؤُنا

fofoyoyo

وَعَلِموهُ بِبَصيرَتِهِمْ ، هُوَ حَقيقَةٌ ، وَأنَّ هَذا الرَّجُلَ أشَرُّ مِمّا قَدَّرْنا . »

سَأَلَهُ السِّنْدِبادُ : « هَلْ كانَ يَصْحَبُ ذَلِكَ القُرْصانَ صَبِيَّةٌ جَميلَةٌ في نَفْسِ عُمْري ؟»

أَجابَهُ رَجُلُ الإسْكيمو : « لَسْتُ أَدْري ، فَقَدْ كانَ يَصْحَبُ ذَلِكَ الشِّرّيرَ الكَثيرُ مِنَ الأتْباعِ ، مُخْتَلِفي الأَعْمارِ وَالوُجوهِ وَالأَلْوانِ . »

هَبَّ السِّنْدِبادُ واقِفًا في حَماسٍ ، وَهُوَ يَقولُ : « إذَنْ خُذْني إلى هَذا القُرْصانِ الشِّرّيرِ في الحالِ . »

أجابَهُ ليمو : « أ لَيْسَ مِنَ الأفْضَلِ أنْ تَنْتَظِرَ اسْتِعادَةَ رَفيقِكَ الشَّيْخِ لِقُواهُ ، فَنَصْحَبَهُ مَعَنا ؟ فَإنَّ الأَمْرَ يَخُصُّهُ قَبْلَنا ، كَما أنَّ الوُصولَ إلى مَكانِ القُرْصانِ الأسْوَدِ لَنْ يَسْتَغْرِقَ أَقَلَّ مِنْ شَهْرٍ ، وَلَنْ نَسْتَطيعَ خِلالَ هَذِهِ المُدَّةِ تَرْكَ رَفيقِكَ الشَّيْخِ وَحْدَهُ ، وَإلا هَلَكَ ، لأَنَّهُ في حاجَةٍ لِمَنْ يَعْتَني بِهِ حَتّى يَسْتَرِدَّ قُوَّتَهُ . »

أَطْرَقَ السِّنْدِبادُ بِرَأسِهِ ، وَقالَ : « صَدَقْتَ ، أيُّها الرَّجُلُ . »

وَمَرَّ أَكْثَرُ مِنْ شَهْرٍ قَبْلَ أنْ يَسْتَعيدَ الشَّيْخُ رَشْدانُ عافِيَتَهُ وَيَتَمَكَّنَ مِنْ مُغادَرَةِ فِراشِهِ وَتَلْتَئِمَ جِراحُهُ . وَخِلالَ ذَلِكَ الوَقْتِ اخْتَفَتِ الشَّمْسُ عَنْ قَلْبِ السَّماءِ تَمامًا ، وَسادَ الظَّلامُ لَيْلَ نَهارَ لا يَقْطَعُهُ بَصيصُ ضَوْءٍ ، غَيْرَ أنْوارِ الشَّفَقِ الغامِضَةِ الخافِتَةِ . وَغَمْغَمَ الشَّيْخُ رَشْدانُ وَهُوَ يَتَأمَّلُ السَّماءَ بَعْدَ تَمامِ شِفائِهِ : « لا أُصَدِّقُ أنَّني قَدْ سَأَبْلُغُ مَكانَ هَذا القُرْصانِ الأَسْوَدِ أخيرًا ، وَأَهْتَدي إلى مَكانِ ابْنَتي الغالِيَةِ . »

وَمَسَحَ دَمْعَةً تَجَمَّدَتْ فَوْقَ وَجْنَتَيْهِ ، وَهُوَ يَقولُ : « أَرْجو أنْ أَجِدَها حَيَّةً تُرْزَقُ ، وَألا يَكونَ قَدْ نالَها سوءٌ عَلى يَدَيْ هَذا الوَغْدِ الشِّرّيرِ . »

أجابَهُ السِّنْدِبادُ مُتَرَفِّقًا : « فَلْتَدْعُ اللهَ إلى ذَلِكَ ، فَهُوَ سَميعٌ مُجيبٌ . »

fofoyoyo

فَاحْتَضَنَ الشَّيْخُ رَشْدانُ السِّنْدِبادَ ، وَقالَ لَهُ : « لا أدْري كَيْفَ أُكافِئُكَ عَلى جَميلِكَ ، أيُّها الفَتى ، فَلَوْلاكَ لَما أَمْكَنَني المُخاطَرَةُ بِهَذِهِ الرِّحْلَةِ ، وَلأَهْلَكَتْني المَصاعِبُ وَالوُحوشُ الَّتي صادَفْتُنا . »

أَجابَهُ السِّنْدِبادُ : « لَوْ أنَّ الزَّمَنَ قَدْ عادَ بِنا وَسَأَلْتَني أنْ أُرافِقَكَ هَذِهِ الرِّحْلَةَ مَرَّةً أُخْرى- لَما تَرَدَّدْتُ بِرَغْمِ ما واجَهْتُهُ مِنْ مَخاطِرَ ، فَما أَسْوَأَ حَياتي الَّتي أَمْضَيْتُها مُتَبَطِّلاً كَسولاً في بَغْدادَ، وَما أَغْرَبَ ما شَهِدْتُ مِنْ عَجائِبَ في كُلِّ مَكانٍ زُرْناهُ . »

وَأَخيرًا حانَ مَوْعِدُ الرَّحيل إلى مَكانِ القُرْصانِ الأسْوَدِ ، فَتَأَهَّبَ ليمو لِذَلِكَ ، وَحَمَلَ مَتاعَهُ وَأَشْياءَهُ مِنْ مَنْزِلِهِ الثَّلْجِيِّ إلى زَحّافَتِهِ ، وَأَجْلَسَ الشَّيْخَ رَشْدانَ في زَحّافَتِهِ ، وَاسْتَعَدَّ لِيَقْطَعَ المَسافَةَ الكَبيرَةَ مَعَ السِّنْدِبادِ ، سَيْرًا فَوْقَ الأقْدام .

وَبَدَأَتِ الرِّحْلَةُ في لَيْلٍ لا يَنْتَهي بَعْدَ أنْ غابَتِ الشَّمْسُ وَراءَ الأفُقِ ، وَلَمْ تَطْلُعْ مَرَّةً أُخْرى .

الفَصْلُ السّابِعُ

نِهايَةُ القُرْصانِ الأسْوَدِ

اسْتَمَرَّتِ الرِّحْلَةُ شَهْرًا بِأكْمَلِهِ ، كانَتِ الكِلابُ خِلالَها تَجُرُّ الزَّحّافَةَ نِصْفَ اليَوْمِ وَتَرْتاحُ نِصْفَهُ الآخَرَ ، فَيَقومُ السِّنْدِبادُ وَرَجُلُ الإسْكيمو ليمو بِصَيْدِ عُجولِ البَحْرِ .

وَذاتَ يَوْمٍ لاحَ مِنْ بَعيدٍ هَيْكَلٌ ضَخْمٌ دُفِنَ في الجَليدِ ، وَلَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ غَيْرُ نابَيْ فيلٍ كَبيرَيْنِ ، فَتَوَقَّفَ السِّنْدِبادُ أمامَهُ مَدْهوشًا ، وَقالَ ليمو في سُرور : « هَذا الشَّيْءُ هُوَ نابا فيلِ الماموث. إنَّ أنْيابَ هَذِهِ الفيلَةِ تُساوي ثَرْوَةً ، وَالتِّجارَةُ فيها عِنْدنا تُحَقِّقُ أَرْباحًا طائِلَةً. لَقَدْ أَسْعَدَني الْحَظُّ بِرُفْقَتِكُما ؛ فَقَدْ عَثَرَ أبي أيْضًا عَلى نابَيْ فيلٍ ، وَهُوَ يُقَدِّمُ خِدْماتِهِ لأبيكَ الرّاحِلِ أيُّها الشَّيْخُ الطَّيِّبُ . »

قالَ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « الحَمْدُ لله ، إنَّها بادِرَةُ خَيْرٍ . »

fotoyo

وَتعاوَنَ الثَّلاثَةُ عَلى اسْتِخْراجِ نابَيِ الفيلِ وَحَمَلاهُ إلى الزَّحّافَةِ ، وَ واصَلوا رِحْلَتَهُمْ ، إلى أنْ لاحَ مَسْكَنٌ صَغيرٌ مُشَيَّدٌ مِنَ الخَشَبِ وَالطّينِ تُحيطُ بِهِ الثُّلوجُ ، وَأَوْشَكَتْ أنْ تَدْفِنَهُ تَحْتَها ، فَتَوَقَّفَ الرَّكْبُ ، وَأشارَ ليمو إلى المَنْزِلِ قائِلاً : « هُنا يَسْكُنُ القُرْصانُ الأَسْوَدُ . »

فَقالَ السِّنْدِبادُ مُتَعَجِّبًا : « إنَّ المَكانَ يَبْدو مَهْجورًا ، وَأَخْشى أنْ يَكونَ القُرْصانُ الأَسْوَدُ قَدْ غادَرَهُ . »

اِحْمَرَّ وَجْهُ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَقالَ : « إنَّ قَلْبي يُحَدِّثُني بِأَنَّني سَأجِدُ بُغْيَتي في الدّاخِلِ ، وَأَكادُ أَسْمَعُ أَنْفاسَ هَذا القُرْصانِ ، الَّذي يُلَوِّثُ الجَوَّ بِالْهَواءِ الَّذي يَتَنَفَّسُهُ . »

وَانْدَفَعَ نَحْوَ المَسْكَنِ ، وَأزاحَ الثَّلْجَ المُتَراكِمَ فَوْقَ بابِهِ ، فَتَكَشَّفَتْ لَهُ رَدْهَةٌ غارِقَةٌ في الظَّلامِ وَحُجُراتٌ يَشْمَلُها صَمْتٌ مُطْبِقٌ ؛ فَصاحَ بِقُوَّةٍ : « أَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ هُنا ؟ »

وَخُيِّلَ لَهُ أَنَّهُ سَمِعَ آهَةً واهِنَةً تَأْتيهِ مِنْ إحْدى الحُجُراتِ ، فَانْدَفَعَ إلَيْها وَرَفَعَ بابَها ، فَتَحَطَّمَ وَتَهاوى . وَ وَقَفَ

الشَّيْخُ رَشْدانُ مَكانَهُ يُحَدِّقُ في الحُجْرَةِ المُظْلِمَةِ الباردَةِ ، وَبَعْدَ لَحَظاتٍ بَدَأَتْ عَيْناهُ تَعْتادانِ الظَّلامَ ، فَشاهَدَ شَخْصًا مُمَدَّدًا فَوْقَ الأَرْضِ الخَشَبِيَّةِ ، وَهُوَ يَئِنُّ وَيَتَوَجَّعُ ، وَقَدْ نَحَلَ جَسَدُهُ فَصارَ كَأَنَّهُ هَيْكَلٌ عَظْمِيٌّ . وَحَدَّقَ الشَّيْخُ رَشْدانُ فيهِ ، وَتَفَرَّسَ في لَوْنِ بَشَرَتِهِ الأَسْوَدِ ، وَتَساءَلَ غَيْرَ مُصَدِّقٍ : « القُرْصانُ الأَسْوَدُ ؟ »

فَنَدَّتْ عَنِ القُرْصانِ آهَةُ أَلَمٍ أَحْرَقَتْ صَدْرَهُ ، وَأَقْبَلَ السِّنْدِبادُ وَليمو ، وَحَدَّقا في المَشْهَدِ أمامَهُما ذاهِلَيْنِ ، وَانْحَنى الشَّيْخُ رَشْدانُ عَلى القُرْصانِ المُحْتَضَرِ وَهُوَ يَقولُ لَهُ : « إنَّني لا أُصَدِّقُ ما أَراهُ أمامي . أَ أَنْتَ القُرْصانُ الأَسْوَدُ حَقّا ، الَّذي كانَ اسْمُهُ يُثيرُ الرِّجْفَةَ في القُلوبِ وَالرِّعْدَةَ في الأَبْدانِ ؟ أَيَّةُ كارِثَةٍ أَصابَتْكَ ؟ »

جاهَدَ القُرْصانُ لِلْكَلامِ ، وَقالَ بِمَشَقَّةٍ وَبِصَوْتٍ كَأَنَّهُ خارِجٌ مِنْ بِئْرٍ : « لَقَدْ هَجَرَني أَتْباعي ، وَنَهَبوا كُلَّ كُنوزي الَّتي جَلَبْتُها إلى هَذِهِ الأَرْضِ ، وَحَتّى الحَشِيَّةُ الَّتي كُنْتُ أنامُ عَلَيْها ضَنّوا عَلَيَّ بِها ، وَتَرَكوني وَحيدًا

fofoyoyo

أُعاني سكرات المَوْتِ في تِلْكَ الأَرْضِ ، بَلْ إنَّني لَمْ أتناوَلْ طَعامًا مُنْذُ أيّامٍ ، وَلَمْ يَدْخُلْ جَوْفي سِوى الثَّلْجِ . »

فَارْبَدَّ وَجْهُ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَصَرَخَ في القُرْصانِ : «وَهَلْ تَسْتَحِقُّ غَيْرَ هَذا المَصيرِ ، أيُّها المُجْرِمُ ؟»

وَأَطْبَقَ بِأصابِعِهِ حَوْلَ عُنُقِهِ صارِخًا : « وَلَسَوْفَ تَكونُ نِهايَتُكَ عَلى يَدَيَّ ، أيُّها الحَقيرُ . »

وَلَكِنَّ السِّنْدِبادَ انْدَفَعَ وَراءَ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَخَلَّصَ عُنُقَ القُرْصانِ مِنْ يَدِهِ ، وَهُوَ يَقولُ لَهُ : « لا يَليقُ بِكَ ، أيُّها الشَّيْخُ أنْ تَقْتُلَ رَجُلاً يَوشِكُ عَلى الهَلاكِ وَلا يَقْدِرُ عَلى الدِّفاعِ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلَوْ كانَ مِنْ عُتاةِ المُجْرِمينَ . »

عَضَّ الشَّيْخُ رَشْدانُ عَلى شَفَتَيْهِ ، وَغَمْغَمَ قائِلاً في نَدَمٍ : « صَدَقْتَ ، أيُّها السِّنْدِبادُ . »

فَأَغْمَضَ القُرْصانُ عَيْنَيْهِ وَسَكَنَتْ حَرَكَتُهُ ، وَبَدا كَأَنَّهُ في النَّزْعِ الأَخيرِ .

فَسَأَلَهُ السِّنْدِبادُ مُتَلَهِّفًا : « أَخْبِرْنا ، أَيُّها القُرْصانُ ،

مَاذا فَعَلْتَ بِابْنَةِ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَأَيْنَ هِيَ ؟»

فَتَحَ القُرْصانُ عَيْنَيْهِ ، وَبَدا كَأَنَّهُ يُجاهِدُ لِيَتَشَبَّثَ بِالحَياةِ وَقالَ في صَوْتٍ مُتَقَطِّعٍ : « إنَّها الوَحيدَةُ الَّتي رَفَضَتْ أنْ تَتْرُكَني ، بِرَغْمِ ما سَبَّبْتُهُ لَها مِنْ أذًى ؛ فَظَلَّتْ إلى جِواري تُحاوِلُ تَطْبيبي وَمُداواتي دونَ فائِدَةٍ . وَهِيَ الآنَ . . . »

وَلَمْ يُتِمَّ القُرْصانُ عِبارَتَهُ ، وَجَحَظَتْ عَيْناهُ ، ثُمَّ مالَتْ رَأْسُهُ وَتَوَقَّفَ تَنَفُّسُهُ . وَصَرَخَ الشَّيْخُ رَشْدانُ في جُنونٍ : « لا تَمُتْ ، أيُّها الشَّيْطانُ قَبْلَ أنْ تُخْبِرَنا بِمَكانِ ابْنَتي . »

fofoyo

وَأَمْسَكَ بِبَدَنِ القُرْصانِ المَيِّتِ ، وَأَخَذَ يَهُزُّهُ في عُنْفٍ ، فَاحْتَضَنَهُ السِّنْدِبادُ قائلاً : « اِطْمَئِنّ ، أَيُّها الشَّيْخُ ، فَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّ ابْنَتَكَ قَريبَةٌ مِنْ هُنا ؛ فَقَدْ أَخْبَرَنا هَذا الرَّجُلُ قَبْلَ مَوْتِهِ أَنَّها رَفَضَتْ تَرْكَهُ وَحيدًا ، وَلا شَكَّ أَنَّها غادَرَتْ مَنْزِلَهُ لِلْبَحْثِ عَنْ طَعامٍ ، وَهِيَ لَنْ تَذْهَبَ بَعيدًا . »

وَقَفَزَ الشَّيْخُ رَشْدانُ نَحْوَ البابِ صارِخًا : « سَوْفَ أَبْحَثُ عَنْها . »

وَلَكِنَّ السِّنْدِبادَ تَشَبَّثَ بِذِراعِهِ قائِلاً : « اِنْتَظِرْ وَسَنَخْرُجُ مَعَكَ ، أَيُّها الشَّيْخُ لِلْبَحْثِ عَنِ ابْنَتِكَ . وَلَكِنْ عَلَيْنا دَفْنَ القُرْصانِ أَوَّلاً . »

فَصَمَتَ الشَّيْخُ رَشْدانُ وَلَمْ يَرُدّ ، وَظَلَّتِ الدُّموعُ تَسُحُّ مِنْ عَيْنَيْهِ مِدْرارًا . وَنَهَضَ السِّنْدِبادُ فَجَهَّزَ حُفْرَةً خارِجَ المَنْزِلِ وَسَطَ الجَليدِ ، وَقامَ بِدَفْنِ القُرْصانِ فيها وَالصَّلاةِ عَلَيْهِ .

وَأَشارَ ليمو إلى آثارِ أَقْدامٍ عَلى الأَرْضِ ، وَقالَ :

« هَذِهِ آثارُ قَدَمَيْ فَتاةٍ صَغيرةٍ ، وَهِيَ آثارُ قَدَمَيْ عَنْبَر دونَ شَكٍّ ، فَهِيَ صَغيرَةٌ مُتَعَثِّرَةٌ ، وَقَدِ انْطَبَعَتْ فَوْقَ الثَّلْجِ الهَشِّ الَّذي تَساقَطَ لَيْلَةَ أَمْسِ ، وَلَعَلَّنا نَكونُ حَسَني الحَظِّ لَوْ عَثَرْنا عَلَيْها سَريعًا ، فَهِيَ لَنْ تَصْمُدَ في ذَلِكَ الطَّقْسِ القارِسِ البُرودَةِ . »

وَأَسْرَعوا ثَلاثَتُهُمْ وَراءَ أَثَرِ الأَقْدامِ الَّتي انْتَهَتْ فَجْأَةً إلى جِوارِ أَحَدِ الكُثْبانِ .

وَما كادَ الشَّيْخُ رَشْدانُ يُطِلُّ وَراءَها حَتّى اتَّسَعَتْ عَيْناهُ ، وَصَرَخَ غَيْرَ مُصَدِّقٍ : « عَنْبر . . اِبْنَتي ؟! »

وَكانَتْ عَنْبَر مُلْقاةً عَلى الأَرْضِ فاقِدَةً الوَعْيَ وَقَدْ تَجَمَّدَتْ أَطْرافُها ، وَأَوْشَكَ تَنَفُّسُها أَنْ يَتَوَقَّفَ ، فَاحْتَضَنَها الشَّيْخُ رَشْدانُ وَهُوَ يَبْكي كَطِفْلٍ صَغيرٍ ، وَهُوَ يَخْشى فَقْدَ اِبْنَتِهِ ، بَعْدَ أَنْ عَثَرَ عَلَيْها أَخيرًا .

fofoyoyo